ليس ثمة عابر فيما حولنا، قال لي الشيخ: «ادخل يا عبد الله، ادخل يا بني، بيتي، فأنا أعيش وحدي في هذا البيت، أصنع طعامي بيدي مرات كثيرة، ومرات تأتي امرأة لتصنعه لي أو لتتفقدني. تعال، عندنا خبز ولبن وقليل من اللحم يكفينا. ليست شهيتي اليوم على أحسن حال، سأعدّ لك الشاي».. سحرتني وحدته وعزلته. أليس هذا مرتجاي من مقتفي أثري؟ أليس الأمانَ التامّ، السلامَ النقيّ لا الملوث، بل الأمان البعيد عن الظلام، أعني الأمان القريب من القلب؟ ترى هل القلب مسلّة أحزان؟ إذ كل شيء ينبغي أن يسير برفق متهادياً ومتريثاً، لا خوف يتربّصني على سفح أيامي. أين أيامي؟ هل أضعتها في التوجّس المريب؟ ايه تفاحة الثعلب المغبرة،

التراشق بالشهب

١ ـ «حرائق الزيت»

قبلَ قرونٍ متُّ
ثم رجعت لأسكن هذي الأرض
روحي حائرة
كملاكٍ ضيّع في الرحلة نحوَ الله حقائبه
وعلى الأفقِ الكالح تومض عيني مثل فنار
هذا بيتي
ما أبقت حملات الغازين سوىٰ بابٍ مكسور
تلكَ حقولي
أشواك تنمو من أجلِ مسيحٍ آخر
وعلىٰ الشمس الرخوة تغطّس راحة كفّي
حيث تنقّلتُ أرىٰ أبنائي
وصناديقي عبثَ الدود بها واللصُّ
كَبُرَ الحزنُ كأورام السرطان
واعتصرَ البدرُ علىٰ الشجرِ اليابسِ أثواب الغرباء

* * *

لستُ غريباً عن هذا الوحل
عجنت منه يداي شعوباً وحضارات
وشممتُ له ـ حينَ ذُلِلْتُ ـ بأثواب السّادة رائحة عفنة
قبلَ قرونٍ متُّ
ثم رجعت لأسكن هذي الأرض
لست أرىٰ نفسي بعدَ العوْدِ غريباً
كان جدارُ الموتِ زجاجاً
والكونان علىٰ مبعدة الأنفاس من الآخر
وإذا اشتقتُ
فبينَ الموتىٰ والأحياء زيارات مجّانية

* * *

أضحكُ،
والقمل بأثوابي
أغفو،
فكأنّي لم أشبعْ موتاً
أتطلّعُ في المرآة
فتطلق في وجهي آلاف الماسورات قذائفها
لا أخشىٰ شيئاً وبحلقي مازال مذاق المرِّ
لكنْ ما يقلقني
ألاّ أعثر ـ في الأرض المحروقة ـ عن سقف

* * *

قبلَ قرونٍ متُّ
وعلىٰ البركان الهائجِ طافت روحي
سرتُ مع الأجيال من النشوة بالنّصرِ
وحتىٰ ذُلِّ الأسر
كان المطر الأسود يصبغ قرصَ الشّمس
وصخور الذِّلّة تحني القامات

* * *

هل أيامي نعشٌ أم صندوق أسرار؟ أيّ الأسماء يليق بهذا التوجّس إذن؟ إن لم يكن هذا ولا ذاك فمن الجائز أني سأموت من الترقّب والدناءة المستترة.

قلت للعجوز: «ألا يسكن أحد سواك في هذا البيت؟». حكّ العجوز كتفيه في جدار الحجرة وتأملني برهة من الوقت. قال: «لا أحد. فقط امرأة تأتي لزيارتي مرة واحدة كل يوم، تأتي لتتفقدني أو تجلب لي طعاماً وتمضي». أشعل حمزة الغريب نار موقده ودفّأ يديهْ. سرت حرارة طيبة في المكان. انتعش الجسد ولان الخاطر وتوضّحت معالم الوجه. أنف مستقيم ووجه غزاهُ شحوبٌ مَرَضي، عينان التمع فيهما اطمئنان راسخ عميق، ربما يأسٌ. وشاربان ناعمان ينسدلان

ليث الصندوق

كيفَ رجعت،
وليس بهذا العالم ما يغري؟
الناس سكارىٰ
يبكون وأعينهم في أكياس النايلون
كلمتهم جرفتها الأمطار مع البول إلىٰ الوديان
وعلىٰ الأكتاف بقايا عضّات كلاب

٢ ـ افتقاد شيء تافه

أذكر أني كنتُ قديماً أملك رأساً
وبه عينان كشاشات التلفاز تبثّانِ خفايا جسدي
وبه كانت أذنان
تلتقطان النجدة من أجرام منهارة
وعليه نَمَتْ كومة شوكٍ
أسماها العامة شعراً
وبه ثقبان يطشّان ـ إذا دوهمتُ ـ شراراً
وبه شيءٌ مثل اللّغم يسمّىٰ مخّاً
لم ينفعني يوماً
لكنْ خوفَ تفجُّرِهِ أبقيت عليه بلااستخدام

* * *

منذ زمانٍ كان علىٰ كتفي رأسٌ
يُقعي كالفأر علىٰ القمّة
لكن أين ترىٰ قد ضاع
أحلامي لم تجتزْ حَدَّ السُرَع القصوىٰ
قلبي لم يقفز فوقَ سقوف الجيران
أظفاري لم تُغمَدْ إلاّ في لحمي
مَزَّقَ قدمي السَّيْرُ ولم أخلع خفّي
أكلت لحمي القملة لكن لم أنزع أسمالي
كيفَ إذن ضيّعت الرأس
وطيلة عمري ما حاربتُ سوىٰ نفسي؟
رئتي لم تتنشَّقْ من حصّة غيري
لم أسرع في الركضِ مخافة أن يفلتَ عضوٌ منّي
لم أسرع في الأكلِ مخافة أن أبتلعَ لساني
حينَ أغنّي أمسكُ أسناني
خوفاً أن تقلعها آهاتي
وبُعيدَ اليقظة أستنزفُ أعواماً من عمري
كي أمحو آثارَ النوم

* * *

لا أدري أينَ أضعتَ أنا رأسي
كنتُ وثوقاً من خطواتي
تتهشَّمُ أغصان الغابات علىٰ جسدي
والريح السوداء بظهري تفرك فروتها كي تزدادَ بياضاً
لكن حين خلوتُ لأملاكي أحسبها
فوجئت بأنّي لا أملك رأساً

* * *

هذي الدعوة أرسلها للناس جميعاً
من يعثرْ في الأرض علىٰ رأسٍ
فليبعثْه علىٰ عنواني